البحث
٣

ولاية عبد الرحمن بن حبيب على افريقية
١٢٧ - ١٣٧هـ / ٧٤٤-٧٥٥م

دكتوره
نريمان عبد الكريم أحمد
مدرس فى كلية الأداب- قسم التاريخ
جامعة المنوفية

عبد الرحمن بن حبيب

ظهر عبد الرحمن بن حبيب على المسرح السياسى فى ولاية إفريقية فى الثلث الأول من القرن الثانى الهجرى - الثامن الميلادى ، حيث كانت الولاية تعانى من ثورات الخوارج التى تفجرت عام ١٢١هـ / ٧٣٩م كما لم تكن الخلافة الأموية بقادرة على حسم هذه الاضطرابات ، لأنها كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة بسبب ضعف البيت الحاكم واشتداد الدعوة العباسية فى المشرق، لذلك استطاع عبد الرحمن بن حبيب أن يتغلب على الولاية بالقوة بعد طرد واليها الشرعى حنظلة بن صفوان عام١٢٧هـ/٧٤٤م . وبعد قيام الخلافة العباسية خرج ابن حبيب على الخليفة أبى جعفر المنصور أيضا فى عام ١٣٧هـ/٧٥٥م ، ولقد حظيت الفترة التى حكم فيها عبد الرحمن بن حبيب افريقيه والتى امتدت عشر سنوات بأهتمام كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين ، ومع ذلك فإنها لا تزال فى حاجة إلى التكييف الفقهى ووضعها فى الميزان مع الدول الأقليمية(١) التى قامت فى المشرق الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى .

ومن المعلوم أن عبد الرحمن بن حبيب ينتمى إلى أعرق بيت من بيوتات إفريقية المغربية، فهو ابن حبيب بى أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى وجده عقبة بن نافع فاتح إفريقيه و مؤسس أول مستقر للعرب فيها بعد إختطاط مدينة القيروان ؛ وبذلك حظى عبد الرحمن بحب أهل إفريقية من عرب وبربر على السواء ، فضلا عن كونه ممثلا فى هذه الفترة للعرب الأفريقيين فكان أبوه حبيب بن أبى عبيدة على رأس هؤلاء العرب الذين اصطلح على تسميتهم بـ"العرب البلديين" (٢). وهم هؤلاء الجند وأسرهم الذين استقروا فى البلاد منذ أيام الفتح وكانوا يعيشون جماعات متماسكة فى المدن وما حولها خاصة القيروان وتونس وقابس والأربس وبجاية والزاب ، وكانت تؤيدهم جماعات من قبيلة زناتة ممن أسلموا واستعربوا ، وبذلك كان هؤلاء البلديون يمثلون قوة كبيرة لها شأنها آنذاك .كماأن عبد الرحمن بن حبيب نفسه كان يمثل-جيل المولدين الذى ظهر فى افريقية نتيجة لزواج العرب من البربريات ، فأمه كانت بربرية من جبل الأوراس،(٣). وبذلك توفرت لابن حبيب أحد الأسباب التى جعلته قادرا على فهم ظروف الولاية .

وتمثلت هذه الظروف فيما عانته البلاد من توالى الولاة القادمين من المشرق الذين اتبعوا سياسة مالية جائرة ، فضلا عن عجز هؤلاء الولاة عن قمع ثورات الخوارج ، فتوالت الهزائم على الولاية فى المغرب الأقصى(٤).وكان عبد الرحمن أحد الذين اشتركوا فى مقاومة الخوارج مع أبيه حبيب ابن أبى عبيدة ، الذى قتل عند وادى نهر سبو عام ١٢٣ هـ / ٧٤١ م وانتقل بعدها عبد الرحمن بن حبيب مع الجيش المهزوم بقيادة بلج بن بشر إلى طنجة محاولا ترك المغرب إلى الأندلس(٥). ثم انتقلت أخطار الخوارج الصفرية إلى المغرب الأوسط وزحفت

جيوشهم صوب مدينة القيروان بزعامة عبد الواحد الهوارى وعكاشة النفراوى اللذين قاما بحركة التفاف وتطويق للمدينة عند القرن والأصنام (٦). وإذا كان حنظلة قد استطاع أن ينتصر عليهما ، إلا أن الولاية كانت لا تزال مهددة بأخطارهم ، فى وقت كانت أحوال الخلافة الأموية سيئة بعد قتل الوليد بن يزيد المعروف بالناقص ، وما ترتب على قتله من خروج أهل الشام وعامة القواد من إفريقية إلى دمشق(٧).

ويرى أحد الدارسين (٨) "أن مقتل الوليد كان يعد إيذانا لانتصار اليمنية وعودتهم إلى السلطان ، لأنه كان متعصبا للقيسية ، ولذلك خرج أهل الشام من إفريقية خوفا من انقلاب اليمنية والبربر الزناتية ، وبخروجهم أصبح حنظلة فى نفر قليل من القيسية ، كما يرى أيضا أن ماحدث فى أفريقية بعد ذلك من انتصار عبد الرحمن بن حبيب وسيادته على افريقية يعد ختاما للنزاع بين اليمنية والقيسية ، الذى انتهى بإضعاف العرب جميعا". وعلى الرغم من شيوع ظاهرة الصراع بين اليمنية والقيسية فى الأمصار الإسلامية كافة ومنها إفريقية بسبب ما أقدمت عليه الخلافة الأموية من إذكاء الصراعات القبلية منذ البداية لحفظ توازنها ، فإن ما حدث بين عبد الرحمن بن حبيب وحنظلة لا يعد حلقة من حلقات الصراع القبلى ، لأن كلا منهما كان يمنيا ، بينما ما حدث كان انتصاراً للعرب البلديين الذين تؤيدهم زناتة على العرب الطارئين على المغرب من المشرق ، وهم الشاميون من القيسية واليمنية معا(٩).

كما يبدو أن عبد الرحمن بن حبيب قد فكر منذ وقت مبكر فى الاستئثار بالسلطة خاصة بعد هزيمة بقدورة ، لذلك حينما وصل إلى الأندلس فكر فى التغلب عليها ولم يمنعه إلا وجود أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى(١٠). ومن الملاحظ أن البيت الفهرى كان يرى أن من حقه حكم بلاد المغرب والأندلس ، بدليل ما قام به يوسف الفهرى من الانفراد بحكم الأندلس طيلة عشر سنوات، فربما قد تم الاتفاق بينه وبين عبد الرحمن بن حبيب عندما كان فى الأندلس ورسما الخطوط الأولى لهذا الأمر .

وهذه الأسباب وغيرها جعلت عبد الرحمن بن حبيب يفكر فى التغلب على ولاية أفريقية ، فترك الأندلس إلى تونس ودعا إلى نفسه فأجابوه ، لأنه كان محببا فى هذا الثغر ، فسار بهم حتى نزل إلى سمنجة فى جمادى الأولى عام ١٢٧هـ / ٧٤٤م على ما يذكر المؤرخون (١١) ، فأراد من بالقيروان قتاله ، لكن حنظلة منعهم لأنه كان لايرى القتال إلا لكافر أو خارجى ، فاستخدم حنظلة الحيلة معه ، ووجه إليه جماعة من وجوه إفريقية وعدتهم خمسين رجلا يدعونه إلى مراجعة الطاعة ، فلما قدموا عليه أوثقهم فى الحديد وقال : « إن رمانى أحد من أوليائهم بحجر قتلتهم ، وكان القوم الذين ظفر بهم من وجوههم وأشرافهم » فلما رأى حنظلة ذلك دعا القاضى والعدول وفتح بيت المال وأخذ منه ألف دينار وترك إفريقية فى جمادى الآخرة من نفس العام . وبذلك استطاع حنظلة بن صفوان أن يقى الولاية من حرب أهلية لا محالة .

وبعد تغلب عبد الرحمن بن حبيب على الولاية ، كتب إلى الخليفة مروان بن محمد وأهدى إليه الهدايا ، وتقول على حنظلة ونسب إليه مالم يقع منه ، فكتب له مروان بولايته على إفريقية والمغرب كله والأندلس(١٢) ، وبعد مقتل مروان بن محمد وزوال دولة بنى أمية ، ظل عبد الرحمن بن حبيب واليا على إفريقية ووجه كتابا إلى الخليفة أبى العباس السفاح بسمعه وطاعته (١٣) ، وعندما تولى الخلافة أبو جعفر المنصور ، أقر عبد الرحمن بن حبيب على الولاية وأرسل إليه خلعة سوداء وكتب إليه يدعوه إلى الطاعة ، وظل عبد الرحمن بن حبيب يظهر الطاعة لأبى جعفر ويدعو له على المنابر ، أما لبس السواد فهناك خلاف بين المؤرخين حول هذا الأمر ، فمنهم من يرى أنه لبس السواد (١٤) ، بدليل ما أوردوه فيما بعد من نزعه والبعض الآخر(١٥) يرى أنه لم يلبس السواد ، ويبدو أن هذا الخلاف يرجع إلى قصر المدة بين إرسال السواد إلى إفريقية وبين نزعه .

لكنه لم يتحول عن طاعة الخلافة العباسية إلا عندما شعر برغبة الخلافة فى استنزاف موارد الولاية ، فكتب إلى الخليفة المنصور " « إن إفريقية اليوم إسلامية كلها وقد انقطع السبى منها(١٦) » فغضب المنصور وبعث يتهدده ، فلما وصل الكتاب الى عبد الرحمن بن حبيب غضب غضبا شديدا ، ثم نادى الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس، ولم يبق أحد من أشراف الناس ولا أعيانهم إلا واجتمع فى المسجد ، فصعد على المنبر ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم أخذ فى سب أبى جعفر وقال : ظننت هذا الخائن يدعو إلى الحق ويقوم به ، حتى تبين لى خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل وإنى الآن قد خلعته كما خلعت نعلى هذين ، ثم نزع السواد شعار الدولة العباسية وأمر بتمزيقه واحراقه وقال : هذا لباس أهل النار فى النار، وأمر كاتبه خالد بن ربيعة أن يكتب كتابا بخلع المنصور، ويقرأ على المنابر فى سائر بلاد المغرب

فى عام ١٣٧هـ / ٧٥٤م (١٧).

يتضح من العرض السابق، أن عبد الرحمن بن حبيب قد خرج على الخلافة مرتين، الأولى بعد وفاة الخليفة الوليد بن يزيد فى نهاية الدولة الأموية والثانية فى خلافة المنصور مع بداية الدولة العباسية. وقد يتساءل الباحث متى يعتبر عبد الرحمن بن حبيب مستقلا عن الخلافة؟ واذا جاز لنا أن نعتبره قد استقل فى خلافة الأمويين، فبماذا نفسر خروجه فى عهد العباسيين؟.

ويكاد المؤرخون القدامى أن يجمعوا على أن عبد الرحمن بن حبيب أول مستقل فى بلاد المغرب وأن غلبت على أقوالهم عبارات تبين التغلب والاستيلاء والانتزاء.(١٨)، أما عن المؤرخين المحدثين الذين توفروا على دراسة الفترة المبكرة لتاريخ إفريقية والمغرب قد عولوا على الاهتمام بأبراز هذه الحركة، الا أنهم لم يفرقوا بين ما قام به عبد الرحمن بن حبيب فى المرتين ، واتفق غالبيتهم على أن ماقام به يعد استقلالا ، فيذكر الدكتور حسين مؤنس(١٩)

"كان عبد الرحمن ابن حبيب زعيما سياسيا واسع النشاط ذا طموح سياسي، وكان رجلا أنانيا وصوليا اتجه إلى الأستقلال بالبلاد" وفى موضع أخر (٢٠) "فقد بايع لمروان بن محمد، فلما قتل بايع لأبى جعفر المنصور ثم اختلف معه وخلع طاعنه واستقل بأمره " كما يذكر الدكتور عبد العزيز سالم(٢١) " أن أرسال عبد الرحمن بن حبيب بالهدايا إلى مروان لايعنى انه كان فى حاجه الى هذه الولاية ، اذ انه كان قد اغتصبها بالفعل واصبح امير شبه مستقل " اما الدكتور سعد زغلول عبد الحميد(٢٢) فقد حاول الولوج فى موضوع الشرعية وذكر " انه بعد قضاء عبد الرحمن بن حبيب على الثورات التى قام بها العرب والبربر فى المدن المختلفة يكون قد تمكن بعد اربع سنوات من القضاء على خصومه واكد مركزه كوالى البلاد الشرعى " والشرعية هنا كما رأها هى اثبات وجوده فى الولاية بأخضاع الخارجين عليه كما يعتبر خروجه على المنصور انفصالا عن الخلافة . كما يرى الدكتور الحبيب الجنحانى (٢٣)" ان ما قام به عبد الرحمن من حبيب فى عهد الامويين كان استقلالا فعلا وما قام به فى عهد العباسيين كان استقلالا رسميا" ، أما الدكتور هشام جعيط (٢٤) فيرى انه مع عام ١٣٢هـ / ٧٥١م . وسقوط الدولة الاموية تحقق استقلال افريقيه من الوجهة القانونية ، كما يرى دبوز(٢٥) "أن عبد الرحمن بن حبيب كان مستقلا كل الاستقلال ولايخضع للأمويين الا فى بعض المظاهر التى يؤيد بها نفوذه" .

ولمناقشة هذه الاراء السابقة لابد من وضع ماقام به عبد الرحمن بن حبيب أيام الامويين فى القالب الفقهى ، حتى يتسنى لنا الحكم على خروجه فى عهد العباسيين ويطالعنا الماوردى فى كتابه الاحكام السلطانية (٢٦) فى الجزء الخاص بالأمارة على البلدان ان الأمارة نوعان عامة وخاصة ، فأما العامة وهى التى تهمنا فعلى ضربين ، أمارة استكفاء بعقد عن اختيار وهى منعقدة على عمل محدود ونظر معهود ، يفوض اليه الخليفة أمارة أو بلد أو أقليم على جميع أهله فيصير عام النظر ، وأماره الأستيلاء بعقد عن اضطرار فهى ان يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفه إمارتها ويفوض اليه تدبيرها وسياستها ، ويكون الأمير بأستيلائه مستبد بالسياسة والتدبير .

ونظرا لما اسلفناه من قيام عبد الرحمن بن حبيب من طرد الوالى الشرعى حنظلة بن صفوان والسيطرة على الولاية ثم الكتابة الى الخليفة مروان بن محمد وارسال الهدايا ، وما اعقب ذلك من ارسال مروان التقليد له . ولأن مروان كان يعلم انه لا يستطيع ان يعز له بسبب انشغال الخلافة الاموية بمشاكل المشرق مع قيام الثوره العباسية ، فرضى به اميرا على الولاية مضطرا وبذلك يكون عبد الرحمن بن حبيب فى خروجه على الامويين امير استيلاء .

وبعد استيلاء عبد الرحمن بن حبيب على الولاية ، قامت حركات مشابهة لحركته فى افريقية من قبل العرب والبربر بقصد الاستيلاء على بعض المدن فثار عرب الساحل ، وقام ابن عطاف الاذدى ونزل بطيفاس ، وثار ثابت الصنهاجى بباجه واستولى عروة ابن الوليد الصدفى

على تونس ، كما خرج الحارث وعبد الجبار بناحية طرابلس (٢٧) وثار عليه محمد بن حميد الغافقى والى الأربس ، فسجن محمد واخاه سليمان (٢٨) وهذا يدل على ان الولاية كانت تعانى من الفوضى السياسية مع غياب الحكومة الشرعية بعد طرد حنظلة كما ان قيام العرب بالثورة يبين عدم رضاهم عما قام به عبد الرحمن بن حبيب ، اما البربر فكانوا قائمين بالفعل بالثوره منذ اندلاع ثورات الخوارج، فكان من الطبيعى ان تمتد ثوراتهم خلال هذه الفترة ، وقد استطاع عبد الرحمن بن حبيب ان يقضى على هذه الثورات بقوة ، وشراسة (٢٩) ليؤكد استيلاءه على الولاية ، حتى اضحى الشخصية الاولى فى افريقيه وقتذاك والقادرة على تحمل تبعات الولايه .

تم مارس عبد الرحمن ابن حبيب بعد ذلك دوره كوالى معين من قبل الخلافة، فأرسل التقليد الى يوسف الفهرى بولاية الأندلس بوصفها كانت تابعة له (٣٠) وقام بتولية العمال على الولاية وأعمالها المختلفه (٣١) كما تأكد استيلاء عبد الرحمن ابن حبيب كوالٍ مستبد بأمور الولاية فى الفترة من حصوله على التقليد من مروان بن محمد حتى خروجة على المنصور فى ضرب الدراهم (٣٢) وضرب الصنوج التى تقرر الوزن والسماح لعمال الولاية بضرب الصنوج الأقل قيمة (٣٣)؛ فضلا عن ذلك فقد انفذ الحملات لغزو السوس وأرض السودان (٣٤) وغزا تلمسان وكذلك غزا صقلية. وسردانية وصالحهم على الجزية (٣٥) وقام أيضا بتولية العهد لأبنه حبيب من بعده (٣٦) .

وقد اسفرت الأعمال التى قام بها ابن حبيب عن ترسيخ قدميه فى الولاية وبرغم أنه كان يكتب بالفتح الى الخلفاء (٣٧) فانه على ما يبدو لم يقم بأرسال الأموال المقررة عليه قبل الخلافة وقد كتبها الى الخليفة بشكل سافر "فلا تطلب منى مالا(٣٨) مع أنه قد غنم الكثير من خلال الفتوحات السابقة (٣٩) ولم يكن السبب فى عدم أرسال الأموال الى الخليفة المنصور أن إفريقية لم يكن بها مال وأن الولاية كانت فى فوضى والجباية معطلة (٤٠) لكن ابن حبيب اكتفى بالعلاقة الشكلية فقط من إقامة الخطبة والدعاء للخليفة على المنابر، وهذا الأمر قد ازعج المنصور الذى لا يمكن أن يرضى بالولاء الشكلى فبعث يتهدده وتلى ذلك ماقام به ابن حبيب من خلع طاعة الخلافة التى كانت فى أوج قوتها مع المنصور الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدوله العباسية وواضع أسس المركزية والحفيظ عليها أيضا من خلال تأكيد سلطان الخلافة فى الولايات الخاضعة لسلطانها (٤١) .

وللوقوف على حقيقة ما حدث فى افريقيه فى العصر العباسى لابد لنا من عرض لظروف قيام الدول أو الدويلات الأقليمية فى المشرق الإسلامى بداية من منتصف القرن الثالث الهجرى اذ ما حدث أنذاك قد تشابه الى حد كبير مع ماقام به عبد الرحمن بن حبيب زمن الأمويين ، ومعلوم أن قيام هذه الدول قد مر بدورين ، الأول : برضى الخلافة وتمثل فى قيام الدولة الطاهريه فى خراسان عام ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م فى عهد المأمون والخلافه لا تزال قوية مرهوبة

الجانب وأن تخلت عن المركزية بعض الشيء بهدف حماية حدودها فى مناطق الأطراف، بعد ان بدأت الأقليمية تطل برأسها فى هذه المناطق. والدور الثانى : قامت فيه بعض الدول رغما عن الخلافة، تلك التى رأى امراؤها فى انفسهم القدرة على الأنفراد بالأمر مستفيدين من ضعف الخلافة التى وقعت تحت سيطرة الأتراك فقامت الدولة الصفارية وتلتها الدوله السامانية ثم الدولة الغزنوية (٤٢) ؛ فضلا عن الدول التى قامت وسيطرت على الخلافة نفسها .

ومع ذلك فقد حاولت هذه الدول الحصول على رضا الخلافة ما امكن من خلال أرسال الأموال والهدايا الى الخلافة بهدف الحصول على التقليد الشرعى فى وقت كانت فيه الخلافة العباسية ضعيفة ولاتملك حتى ان تحمى نفسها ، بينما كانت هذه الدول تمثل قوه ضاربة فى مناطق الأطراف، فضلا عن قيامها بنشر الإسلام فى المناطق التى تليها ومع ذلك كانت فى حاجه دائما الى الشرعية من الخلافة التى تملك السلطان الروحى . وبذلك يقف هؤلاء الأمراء على قدم المساواة مع عبد الرحمن بن حبيب فى خروجة على الأمويين ويعتبرون أمراء استيلاء، والماوردى (٤٣) الذى صاغ أحكامة فى فترة وجود هذه الدول يقول " وإذا فوض الخليفة تدبير الإقاليم إلى ولاتها ووكل النظر فيها إلى المستولين عليها كالذى فى زماننا " أى أن أمارة الأستيلاء كانت تمثل قضية مطروحة على الساحة السياسية فى عهده واجهها بالتشريع ليحافظ على شوكة الدولة وسلطة الخليفة من جانب وليفرض التعامل مع الواقع السياسى من جانب أخر (٤٤).

ومع أن بلاد المغرب تشترك مع المشرق الإسلامى فى وقوع كل منهما فى أطراف العالم الإسلامى ، لكن المغرب كان سباقا فى الخروج على الخلافة وهذا يرجع الى اختلاف بلاد المغرب عن المشرق فى نواح كثيره منها خصوصية بلاد المغرب التى نشأت منذ البدايه كبيئة معارضه، واتضح هذا منذ بداية الفتوحات حتى أن مرحلة الفتح قد تجاوزت السبعين عاما بسبب المقاومة البربرية الشرسة من قبل البرانس والبتر على التوالى متمثلة فى حركتى كسيلة والكاهنة (٤٥) وماترتب على ذلك من ضياع جهود العرب الفاتحين . ويرجع أحد الدارسين (٤٦) هذا السبق بين بلاد المغرب والمشرق بنحو قرن من الزمان الى طبيعة البلاد وعدم إستطاعة العرب قهر أهل البلاد قهرا مطلقا فى وقائع حاسمة مما اضطرهم الى المهادنه .

وتختلف بلاد المغرب أيضا عن المشرق الإسلامى من حيث مدى الحفاظ على الارتباط بالخلافة ، فبينما نجد أمراء المشرق الإسلامى وإن كانوا حريصين على الاستئثار بالسلطة فى مناطق نفوذهم ، لكننا نجدهم أشد حرصا على استمرار الطاعة والولاء للخلافة ، فالدولة الصفارية مثلا التى طمعت بعد قيامها على أن تحل محل الأتراك فى الخلافة أو كشفت عن نياتها بشكل سافر عندما خرج يعقوب بن الليث بن الصفار بجيشه لدخول بغداد نفسها ، لم يطعه جنده ، عندما ظهر الخليفة المعتمد على رأس جيش الخلافة ، وتخلوا عنه (٤٧) ، وما قام به البويهيون أيضا من السيطرة على الخلافة ، وما تعرضت له الخلافة أثناء هذه الفترة من

ضياع هيبتها ، ومهما قيل عن وسائل إذلال الخلافة خلال سيطرة الأتراك أو البويهيين من بعدهم ، لكن علاقتهم بالخلافة مع ذلك كانت محكومة دائما بضرورة رضا الخلافة واعتبار شخص الخليفة وأهميته لوجودهم مع أن الخلافة كانت ضعيفة .

وهناك ارتباط بين ماقام به الفرس والترك تجاه الخلافة وبين تراث هذه الشعوب والبيئة التى أتوا منها ، فالفرس الذين أقاموا عددا من الدول فى المشرق كانوا دائما محكومين باحترام شخص الخليفة ارتباطا بماضيهم منذ أيام الساسانيين فيما عرف بالحق الملكى الالهى المقدس ، أما الأتراك فقد تأثروا أيضا بالبيئة التى أتو منها ، وتمثل ذلك فى طابع هذه العناصر التى اعتنقت الاسلام وما عرفت به من التعصب الشديد للسنة والنظرة الضيقة إلى الدين والولاء العميق لخليفة المسلمين (٤٨).

أما بلاد المغرب فقد ارتبطت هى الأخرى ببيئتها وظروفها ، حتى أن حركات المعارضة التى فشلت فى المشرق الإسلامى فى العصر الأموى والعباسى وجدت مرتعا خصبا فى التربة المغربية ، كما أن الدول التى قامت بها فى فترة لاحقة خلال القرن الثانى الهجرى بدأت رافضة أساسا لوجود خلافة المشرق ، ونشأت أيضا كقوة معارضة مثل دولتى الخوارج المدرارية والرستمية ودولة الادارسة العلويين (٤٩) ، كما أن أول تجربة إقليمية أقامتها الخلافة العباسية برضاها كانت دولة الأغالبة التى أقامها الخليفة الرشيد عام ١٨٤ هـ / ٨٠٠م عندما أقرت الخلافة النزعة الأقليمية (٥٠) ، وقد سبقت بذلك قيام الدولة الطاهرية بنحو ربع قرن .

لذلك فخروج عبد الرحمن بن حبيب على النحو الذى أسلفناه يتفق وطبيعة البلاد ، وتصرفه تجاه الخليفة المنصور قد أتى من معرفة دقيقة بأحوال الولاية وفهم لقضاياها ، تلك التى جهلها كل الولاة الذين أتو من المشرق ، كما أن جرأته فى رفض إرسال الأموال إلى الخلافة يعد مثالا صادقا لهذه المعرفة الدقيقة بالولاية التى استنزفت خيراتها طوال العصر الأموى من قبل الولاة السابقين ، أما خلعه للمنصور كما ألمحنا فلا يزال فى حاجة إلى تقنين ، ومن خلال ما ذكره الماوردى أيضا من الشروط أو الواجبات التى تجب على الأمير المستولى (٥١) .تلك الواجبات التى تحدد العلاقة بين الخليفة وأمير الاستيلاء والتى هى فى جوهرها دينية لحفظ حقوق الخلافة ومنها ظهور الطاعة ولما كان إبن حبيب قد قطع كل ما يربطه بالخلافة فقد أصبح بذلك مستقلا استقلالا حقيقيا عن الخلافة .

ولم يلبث عبد الرحمن بن حبيب أن قتل بعد فترة وجيزة من خلعه لطاعة العباسيين ، على يد أخويه إلياس وعبد الوارث فى ذى الحجة ١٣٧هـ /٧٥٤ م وأرجع المؤرخون (٥٢) سبب قتله إلى تولية العهد لابنه حبيب من بعده من دون أخيه إلياس ، الذى كان يعتبر القوة الضاربة التى حافظت على كيانه فى الولاية طيلة عشر سنوات ماضية بوصفه قائدا عسكريا ، كما ركزت المصادر أيضا على دور زوجة إلياس من خلال تحريضها المستمر بسبب تولية عهده لابنه وقتل عبد الرحمن لبعض أفراد البيت الأموى الذى تنتمى إليه . وفى الحقيقة إن

سبب قتله لايرجع إلى هذا السبب الذى لا يعدو سوى سببا ثانويا ، لكن السبب ا لرئيسى يكمن فى موقف الرأى العام القيروانى من ناحية وموقف الخلافة العباسية من ناحية أخرى مما قام به عبد الرحمن ابن حبيب من خلع طاعة الخلافة ، ذلك السبب الذى تذكره المصادر دون التركيز عليه .

ويتضح ميل الرأى العام القيروانى لطاعة الخلافة منذ البداية ، فتذكر المصادر (٥٣) كما المحنا سلفا ، عدم ميل عرب القيروان إلى عبد الرحمن عندما سار إليها ، فأراد من بها قتاله فمنعهم حنظلة ... إلخ . معنى ذلك أنه كان هناك من عربها من رفض ماقام به ابن حبيب من تهديده للوالى الشرعى صاحب التقليد ، وعندما أرسل حنظلة إليه جماعة من وجوه إفريقية لمراجعة الطاعة ، فساروا فلما كانو ببعض الطريق بلغهم ولاية مروان بن محمد فأرادوا الانصراف وبلغ عبد الرحمن هذا الأمر فأرسل إليهم خيلا فأصرفتهم إليه ، والسبب فى ذلك أنهم كانوا قد كاتبوه سرا من حنظلة ، فلما بلغهم ولاية مروان نزعوا عن ذلك(٥٤). والذى يهمنا من هذه الرواية أنهم مالوا فى البداية إلى عبد الرحمن بن حبيب لأنه كا محببا إليهم باعتباره أحد أحفاد عقبة بن نافع ، لكن الأهم أن ميلهم إليه فى البداية كان بسبب اختلال الأحوال فى المشرق بعد قتل الوليد بن يزيد وتولية أخيه ابراهيم لفترة لاتزيد عن أربعة أشهر (٥٥)، فضلا عما حدث فى إفريقية نفسها من خروج أهل الشام وعامة القواد إلى دمشق منذ وفاة الوليد(٥٦) فخلو إفريقية فى هذه الفترة من وجود شخصيات لها ثقل سياسى بعد خروج أهل الشام وأكابر القواد قد أدى إلى إتاحة الفرصة لعبد الرحمن أو غيره من المتطلعين إلى السلطة للاستيلاء على الولاية ونفس الشئ يقال عن العرب الذين كاتبوا عبد الرحمن بن حبيب لكنهم عندما علموا بخلافة مروان بن محمد رجعوا عن هذا الأمر مما يؤيد تعلقهم بالشرعية .

كما انتهز العرب فرصة غياب عبد الرحمن عن الولاية عندما خرج لاسترداد طرابلس من الأباضية ، فأرادوا عزله ونفية وتولية شعيب بن عثمان بن أبى عبيدة الذى أبى ذلك ولما علم ابن حبيب بذلك وهو لا يزال بقابس أسرع الخطى إلى مدينة القيروان (٥٧) ، بينما رضوا بعد ذلك عن ولايته عندما أرسل إليه مروان بن محمد التقليد بالولاية ، وظل موقفهم على هذا النحو طالما أن الخلافة راضية عن ولايته ، ولكن سرعان ما انقلبوا عليه عندما خلع الخليفة المنصور ، ويتضح هذا فى نصوص المؤرخين ، التى تكاد تجمع بشكل ضمنى على أن قتله كان بسبب خلاف الطاعة مع الخليفة أبى جعفر المنصور ، فيذكر الرقيق(٥٨) :« فاجتمع رأى الياس وعبد الوارث على قتل عبد الرحمن، ووالاهما على ذلك جماعة من أهل القيروان من العرب وغيرهم ، على أن يؤم الياس بن حبيب ويدعو إلى أبى جعفر » ويذكر ابن الأثير (٥٩) :«وكان خلع المنصور مما أعان أخاه إلياس عليه ، فاتفق جماعة من وجوه القيروان معه على أن يقتلوا عبد الرحمن ويولوه ويعيدوا الدعاء للمنصور » ومضى ابن

عذارى(٦٠) فى هذا الإتجاه أيضا ،أما ابن خلدون (٦١) فيذكر « لما انحرف عبد الرحمن بن حبيب عن طاعة أبى جعفر قتله أخواه إلياس وعبد الوارث ».

وهذا يبين مدى تعلق أهل إفريقية والقيروان على وجه الخصوص بالشرعية وإذا كان إلياس بن حبيب قد فكر فى قتل أخيه بسبب تحريض زوجته إلا أنه استغل غضب أهل القيروان خاصة عربها على قتل بن حبيب ، لأن البربر كانوا مشتركين فى ثورات الخوارج . وموقف عرب القيروان ليس جديدا ، فقد استطاعوا قبلا فى عام ١٠٣ هـ / ٧٢٣م قتل الوالى يزيد بن أبى مسلم ثم أرسلوا إلى الخلافة الأموية لاختيار وال آخر من قبلها (٦٢) وهذا التعلق الشديد بالخلافة هو الذى حركهم للتخلص من ابن حبيب الذى كان من الجرأة بحيث أقدم على عمل غاية فى الخطورة.

أما موقف العباسيين تجاه عبد الرحمن بن حبيب فيتضح أيضا منذ البداية إذ أن موقف عبد الرحمن بن حبيب من الترحيب بالامراء الأمويين الفارين من المشرق والزواج من نسائهم هو وأخوته ، جعل الخلافة تأخذ دائما موقف الحذر(٦٣) ،وكان من الطبيعى أن تفكر الخلافة منذ السفاح فى تثبيت وجودها فى المنطقة فأرسلت حملة أبى عون عام ١٣٦هـ / ٧٥٣م وعززتها بحملة بحرية وصلت إلى الاسكندرية (٦٤) فى نفس السنة وارتبط أيضا هذا العمل العسكرى بحركة دعائية يقوم بها أعوان العباسيين الذى لهم معرفة تامة بأحوال بلاد المغرب من بنى معاوية بن حديج وبنى موسى بن نصير ، لكن لم يقدر لهذا العمل أن يستكمل بسبب وفاة الخليفة أبى العباس السفاح ، فعاد الدعاة ، كما رجع أبو عون بالجيش الذى كان قد رحل إلى مدينة برقة ، أما الاسطول فعلى ما يبدو أنه لم يكن قد تجهز للخروج (٦٥) .

ثم تولى أبو جعفر المنصور الخلافة فى شهر ذى الحجة عام ١٣٦هـ / ٧٥٤م، ولما كان المنصور مشغولا بمشاكل الخلافة ، سواء من قبل عمه عبد الله بن على الذى نازعه على الخلافة وكذلك من قبل أبى مسلم الخراسانى الذى استفحل خطره ، لذا اكتفى الخليفة المنصور من عبد الرحمن بن حبيب بالعلاقة الشكلية التى تمثلت بالكتابة إليه بالسمع والطاعة ولكن بعد أن استتب أمر الخلافة بعد هزيمة عمه عبد الله ثم قتل أبى مسلم الخراسانى فى شهر شعبان عام ١٣٧ هـ تفرغ الخليفة المنصور للولايات ومنها بلاد المغرب ، فأرسل إلى عبد الرحمن يطالبه بالأموال وعندما أجابه بالرفض بعث يتهدده . ولم يمض على ذلك إلا أشهرا قليلة حتى قتل عبد الرحمن ابن حبيب ، مما يبين أن الخلافة قد لعبت دورا فى هذا الأمر .

نخلص من ذلك إلى أن عبد الرحمن بن حبيب فى خروجه على الأمويين يعتبر أمير إستيلاء استطاع أن يحافظ على العلاقة الشكلية التى تربطه بالخلافة وظل ذلك حتى بعد قيام الدولة العباسية لكنه بعد خلع الخليفة المنصور قد قطع كل ما يربطه بالخلافة وأصبح مستقلاً إستقلالاً حقيقياً ولكن لم يدم إلا أشهراً.

الهوامش

(١) يطلق كثير من المحدثين على الدول التى قامت فى المشرق الدول أو الدويلات المستقلة، بينما يكون من الدقه أن تنعت هذه الدول، بالدول الآقليمية تلك التى ظهرت فى البداية كنتاج طبيعى للصراع بينها وبين المركزية انظر محمد ضياء الدين الريس، النظريات الإسلامية السياسية، الطبعة الرابعة ١٩٦٦- ١٩٦٧. ص ٢٣٤؛ وحسن أحمد محمود، العالم الاسلامى فى العصر العباسى، الطبعة الخامسة القاهرة .ص ١٢٨. فهو يعتبر أن الأقيليمة قد أقتصرت على العصر العباسى الأول أما الدول التى قامت فى العصر العباسى الثانى كانت دولاً مستقلة.

(٢) حسين مؤنس، فجر الأندلس : القاهرة ١٩٥٩، ص ١٦٩، معالم تاريخ المغرب، القاهرة ١٩٨٠، ص ٦٦.

(٣) الرقيق، تاريخ إفريقية، تحقيق المنجى الكعبى، تونس ١٩٦٨، ص ١٤١.

(٤) انتصر الخوارج الصفرية على جيش الولاية بقيادة خالد بن أبى حبيب الفهرى وحبيب بن أبى عبيدة الفهرى فى معركة الأشراف، ثم تلتها هزيمة بقدورة عام ١٢٣هـ/ ٧٤١م التى قتل فيها كلثوم بن عياض القشيرى وحبيب بن أبى عبيدة. انظر، ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، بيروت ١٩٨٣، جـ ١،ص .

(٥) نفس المصدر، جـ ١ ص ٦٠.

(٦) الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ١١٦ ومابعدها.

(٧) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٠١.

(٨) حسين مؤنس، فجر الأندلس القاهرة ١٩٥٩، صفحات ١٧٨، ١٨٠.

(٩) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٣٤.

(١٠)الرقيق، تاريخ أفريقية والمغرب، ص ١٢٣.

(١١) نفس المصدر؛ ابن عذارى، البيان، جـ١ ، ص ٦٠؛ النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، القاهرة ١٩٨٣ جـ ٢٤، ص ٦٤

(١١) نفس المصدر، جـ٢٤،ص ٦٦؛ «يذكر البلاذرى أنه من اسباب اقراره فى الولايه أن كاتبه خالد ين ربيعة الأفريقى كان بينه وبين عبد الحميد بن يحيى كاتب مراون بن محمد مودة ومكاتبه فأقر مروان عبد الرحمن على الثغر انظر فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢، صفحات ٢٣٣-٢٣٤.

(١٣) الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ١٣٣.

(١٤) نفس المصدر، ص ١٣٤، ابن الأثير، الكامل، القاهرة ١٩٨٥، جـ ٤، ص ٢٨٠.

(١٥) ابن عذارى، البيان،جـ١ ، ص ٦٧؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ ٢٤، ص ٦٦؛ السيد عبد

العزيز سالم، حول اتخاذ السواد ورفع الأعلام والألوية السوداء فى المغرب والأندلس، فصلة من ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، ١٩٨٣، مجلد٢،ص ٥٦.

(١٦) الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، ص١٣٣؛ المصدر السابق، جـ٢٤، ص٦٧.

(١٧) نفس المصدر، ص ١٣٤، النويرى، نهاية الأرب ، جـ٢٤، ص ٦٧.

(١٨)يذكر ابن عذارى أن عبد الرحمن أول ثائر متغلب على ولاية إفريقية. انظر البيان جـ١ ص٦٨. كما أن ابن الأثير يذكر اخباره تحت عنوان« ذكر استيلاء عبد الرحمن ابن حبيب على إفريقية، انظر الكامل، جـ ٤، ص ٢٧٨، ونفس الشىء يقال عند النويرى الذى ذكر أخباره ايضا مسبوقاً بتغلبه على إفريقية انظر نهاية الأرب، جـ٢٤، ص ٦٤.

(١٩) معالم تاريخ المغرب، ص٦٧.

(٢٠) فجر الأندلس، ص ١٨١.

(٢١) تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى،ص ٢٣٧.

(٢٢)تاريخ المغرب العربى، القاهرة ١٩٦٦، صفحات ٢٩٢، ٢٩٨.

(٢٣) القيروان عبر عصور اذدهار الحضارة الإسلامية، تونس ١٩٦٨، ص ٤٨.

(٢٤) Histoire de la Tunise, la moyen age, la conquet arab et l'E,erate, Tunise, p89

(٢٥) تاريخ المغرب الكبير، القاهرة ١٩٦٣، جـ٢ ص٤٣.

(٢٦) صفحات ٣٠- ٣٤. معلوما أن هذا الكتاب قد وضع فى منتصف القرن الخامس الهجرى ليجد تسويغا شرعيا لما حدث فى الماضى وتنظيم الموقف المعاصر حينئذ ولتهيئة الحلول لما قد يعرض فى المستقبل القريب. انظر. هاملتون حب، دراسات فى حضارة الاسلام ، بيروت ١٩٦٤، ص٢١٣.

(٢٧)الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، صفحات ١٢٥-١٢٦.

(٢٨) ابن الآبار، الحلة السيراء، القاهرة ١٩٦٣، جـ١، ص٨٢، ومن الملاحظ أن ابن الآبار لم يذكر اسم عبد الرحمن ابن حبيب ممن ذكرهم فى رجال المائة الثانية، لكن ذكره جاء عرضا عند ذكر محمد بن حميد الغافقى. كما اغفل ذكره بعض المؤرخين القدامى، أمثال ابن آبى دينار فى كتابه المؤنس الذى ينتهى بولاة العصر الأموى بحنظلة ابن صفوان ثم ينتقل الى الولاة العباسيين بادئا بمحمد بن الأشعث الخزاعى .

(٢٩) استطاع عبد الرحمن ابن حبيب أن يتخلص من هذه الثورات من خلال الحرب والحيلة احيانا وقد اعتمد على أخيه الياس فى القضاء على هؤلاء الثوار، فقضى على حركات الخوارج الصفرية بتونس وقضى على الأئتلاف الصفرى بين عبد الله ابن سكريد وثابت الصنهاجى بباجة انظر الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب،ص ١٢٦ ومابعدها؛ ابن خلدون، العبر، القاهرة ١٩٧٩ جـ٦، ص١١١.

(٣٠) ابن عذارى، البيان. جـ١ ص ٦٢.

(٣١) كان عامله على طرابلس بشر بن حنش مولى لقيس ثم بكر بن حبيب القيسى، كما كان أخيه عمران واليا على تونس. انظر المصدر السابق، صفحات ١٢٨، ١٣٠، ١٣٧. كما كان عامله على ميلة مصل بن حماد انظر

Marcais, G et provencal, Note sur un poids de verre du v111e siecle, Annals, 11,1939, p 14

(٣٢) قام بضرب الدراهم فى سنوات متتالية بداية من عام ١٢٨ حتى عام ١٣٦هـ . انظر.

La Voix, Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque Nationale, Paris,1891 p 136, 137, Walker, A catalogue of the Arab Byzantine and post - reform Umaiyad coins London 1958, p, 118.

(٣٣) سجل على صنجة «بسم الله، ما أمر به الأمير عبد الرحمن بن حبيب مصل بن حماد ولى ميلة عشرون أو قيه فى سنة سبع وعشرون ومئه" op . cit

(٣٤) البلاذرى ، فتوح البلدان، ص ٢٣٣.

(٣٥) ابن عذارى، البيان،جـ ١، ص ٦٥.

(٣٦) الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب،ص ١٣٢.

(٣٧) المصدر السابق، جـ ١، ص ٦٧.

(٣٨) ابن الأثير، الكامل، حـ٤، ص ٢٨٠.

(٣٩) يذكر الرقيق، أنه ظفر من غزوة تلمسان بما لم يظفر بع أحد قبله، وأتى من سببها بما لم يؤت من بلد. انظر. تاريخ إفريقية والمغرب ص١٣٠.

(٤٠) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب،ص ٦٧.

(٤١) حسن أحمد محمود، العالم الاسلامى فى العصرالعباسى، ص١٢٠.

(٤٢) قامت الدولة الصفارية عام ٢٥٤-٢٨٩هـ، والدولة السامانية عام ٢٦١-٣٨٩هـ والدولة الغزنوية عام ٣٥١ - ٥٨٢هـ.

(٤٣) الأحكام السلطانية، ص٢٩.

(٤٤) كمال عمران، العرف فى فكر الماوردى، فصله من حوليات الجامعة التونسية العدد ٣٠، ١٩٨٩، ص ٢١٨.

(٤٥) ابن عذارى، البيان، جـ١، صفحات ٣ ومابعدها.

(٤٦) حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية، القاهرة ١٩٥٨، ص١٥٠.

(٤٧) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة ١٩٧٩،جـ١١ ص ٢٣٨.

(٤٨) حسن أحمد محمود، الاسلام والحضارة العربية فى أسيا الوسطى بين الفتحين العربى

رالتركى، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٠٨.

(٤٩) كان قيام دولتى الخوارج فى بلاد المغرب نتيجة مباشرة لثوارتهم ، فقامت الدولة المدرارية فى سجلماسة فى المغرب الأقصى عام ١٤٠هـ /٧٥٧م والدولة الرستمية فى تاهرت بالمغرب الاوسط عام ١٦١هـ /٧٧٨م، أما دولة الإدارسة العلويين فقامت فى عام ١٧٠هـ /٢٥٩م .

(٥٠) حسن أحمد محمود، العالم الاسلامى، ص ١٢٧.

(٥١) وهذه الشروط هى :- ١- حفظ منصب الأمامة فى خلافة النبوة وتدبير أمور الملة ٢- ظهور الطاعة الدينية التى يزول معها حكم العناد ٣- اجتماع الكلمة على الألفة والتناصر ليكون للمسلمين يد على من سواهم ٤- أن تكون عقود الولايات الدينية جائزة والأحكام والأقضية نافذة ٥- أن يكون استيفاء الأموال الشرعية بحق تبرأ به ذمة مؤديها يستبيحه أخذها ٦- أن تكون الحدود مستوفاه بحق وقائمة على مستحق ٧- أن يكون الآمير قائما فى حفظ الدين ورعا عن محارم الله، يأمر بحقه ويدعو الى طاعته انظر الأحكام السلطانية، ص ٣٤.

(٥٢) الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ١٣٣؛ ابن الآثير، الكامل، جـ٤ ، ص٢٨٠؛ النويرى نهاية الأرب، جـ ٢٤، ص٦٨.

(٥٣) نفس المصدر،ص ١٢٣.

(٥٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب،ص ٣٠٢.

(٥٥) ابن الآثير، الكامل، جـ٤، ص ٢٧٨.

(٥٦) المصدر السابق، ص ٣٠١.

(٥٧) الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، ص١٢٨؛ المصدر السابق، جـ٤ ، ص٢٧٩.

(٥٨) نفس المصدر، ص١٣٥.

(٥٩) الكامل، جـ٤، ص ٦٧.

(٦٠) البيان، جـ١ ، ص ٦٧.

(٦١) العبر، جـ١ ، ص ١١١.

(٦٢) الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، ص١٠٠.

(٦٣) أخبار مجموعة، مدريد ١٨٦٧ ص ٥٠.

(٦٤) الكندى، الولاة والقضاة، بيروت ١٩٠٨، صفحات ١٠٢-١٠٣.

(٦٥) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى، ص ٢٩٤.